من معالم العلم فى عصر الحروب الصليبية :

المدرســـة الصلاحية

للأستـــاذ أحمد أحمد بدوى

كان التعليم فى مصر قبل مقدم صلاح الدين إليها ، فى الجوامع والمساجد ، وأوّل ما عرفت مصر إقامة درس من قبل الخليفة بمرتب ثابت كان فى عهد خلافة العزيز بالله الفاطمى ، فقد سأله وزيره يعقوب بن كلس صلة رزق جماعة من الفقهاء ، يقومون بالتدريس فى الجامع الأزهر ، فأطلق الخليفة لهم ما يكفى كل واحد منهم من الرزق ، وأمر لهم بشراء دار وبنائها ، فبنيت بجانب الأزهر ، فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع ، وتحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تصلى العصر ، وكانت عدتهم خمسة وثلاثين رجلاً ، وكان لهم أيضاً من مال الوزير صلة فى كل سنة ، كما كانوا موضع عطف الخليفة وحبه .

ثم أنشأ الحاكم بأمر الله دار الحكمة وجعلها أشبه بجامعة تلقى فيها الثقافة العالية من فقه ونحو وحديث وأدب واغة وهيئة وطب ورياضة ومنطق وفلسفة ، وأجرى على أساتذتها الأرزاق الواسعة وجهزت بمكتبة ضخمة .

وكان الهدف من التعليم فى الجامع الأزهر ودار الحكمة بثّ مبادىء الشيعة ونشر مذهبهم . ولم تذع المدارس فى مصر فى عهد الفاطميين ، بل لم ينشأ فيها سوى هذه المدرسة التى أنشأها ابن السلار وزير الظافر العبيدى وكان من غلاة السنيين ، فبنى بالاسكندرية سنة ٥٤٦ مدرسة للشافعية أسند أمرها إلى العالم الشهير أبى طاهر السلفى . وقبل هذه المدرسة أنشأ أحد وزراء الحافظ مدرسة لتعليم الشريعة بالاسكندرية أيضاً .

فلما جاء صلاح الدين عمل على تأسيس المدارس المختلفة ، ليشيع فى البلاد مذهب أهل السنة ويعيدها إلى طريق الجماعة ؛ فأنشأ بجوار الجامع العتيق مدرستين : إحداها للشافعية والأخرى المالكية ، وحول قصر الوزير المأمون البطائحى مدرسة للحنفية اتخذت اسم المدرسة السيوفية ؛ لأن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها ، وبنى مدرسة مجاورة للمشهد الحسينى ، وأخرى بالاسكندرية ومدارس بالقدس ودمشق .

ويظهر أن أعظم ما شيده هو المدرسة الصلاحية التى أقامها بجوار قبر الإمام الشافعى ؛ وامل صلاح الدين ، وكان شافعياً ، أراد بإنشائه هذه المدرسة أن يحيى بها ذكرى الشافعى من ناحية ، وأن يكون انبعاث مذهبه قريباً منه حيث يرقد ؛ فوكل أمر إنشائها إلى نجم الدين الخبوشانى ، فنهض ببناء مدرسة لم يعمّر بهذه البلاد مثلها ؛ لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء ؛ وكان يخيل لمن يطوف بها أنها بلد مستقل بذاته ، بإزائها الحمام وغيره من مرافقها ، فكانت أشبه بمدينة جامعية ؛ ولم يضنّ عليها صلاح الدين بمال ، بل كان يقول لنجم الدين : زد احتفالا وتأنقاً ، وعلينا القيام بمئونة ذلك كله . ووقف عليها حماماً بجوارها ، وفرنا تجاهها ، وحوانيت بظاهرها ، والجزيرة التى كانت تسمى جزيرة الفيل بالنيل خارج القاهرة . واتمها بعد أن تم بناؤها سنة ٥٧٢ أصبحت أعظم مدرسة فى العالم الإسلامى كله ، فكانت لذلك تدعى : تاج المدارس .

وجعل صلاح الدين أمر التدريس ، والنظر فيها لنجم الدين الذى تولى أمر بنائها ، ورتب له فى الشهر أربعين ديناراً عن التدريس ، وعشرة دنانير عن النظر فى أوقاف المدرسة ، وجعل له من الخبز فى كل يوم ستين رطلا ، وراويتين من ماء النيل . ولما مات وليها شيخ الشيوخ محمد بن حمويه الجوينى فى حياة صلاح الدين . فلما مات السلطان ولى النظر فى وقفها بنو السلطان واحداً بعد واحد ، ثم خلصت بعد ذلك ، وعاد إليها الفقهاء والمدرسون .

ويدلنا على ما لهذه المدرسة من القدر أن جماعة من أعيان العلماء قد تولوا التدريس فيها ، نذكر من بينهم شيخها الأول نجم الدين الخبوشانى ، وهو فقيه شافعى ولد بناحية نيسابور سنة ٥١٠ ، وتفقه على محمد بن يحيى تلميذ الغزالى ، وكانت له معرفة بنجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين ، وعند ما قدم إلى مصر نصب نفسه لذم الفاطميين وثلبهم ، وجعل تسبيحه سبهم ؛ ويقال إن الفاطميين حاولوا استمالته فلم يقبل . ولما عزم صلاح الدين على قبض العاضد وأشياعه واستفتى الفقهاء أفتوه بجواز ذلك ، وكان أكثرهم فى الفتيا نجم الدين الخبوشانى ، كما كان أول من

خطب لبنى العباس .

والنجم الدين كتاب تحقيق المحيط فى شرح الوسيط الذى ألفه الغزالى فى فقه الشافعية ، وكتب الشرح فى ستة عشر مجلداً

وقد اختلف المؤرخون فيه ؛ فالسبكى يراه إماماً جليلا ورعا آمراً بالمعروف . وشاهده ابن جبير وأثنى عليه . وابن خلكان يقول : رأيت جماعة من أصحابه وكانوا يصفون فضله ودينه ، وأنه كان سليم الباطن قليل المعرفة بأحوال الدنيا . وابن أبى أصيبعة يراه ثقيل الروح متقشفاً فى العيش يابساً فى الدين يأكل الدنيا بالناموس .

والذى يظهر من أعماله أنه كان شديد المغالاة فيما يعتقد ، وكان بينه وبين الحنابلة فتنة قائمة يكفرونه ويكفرهم ؛ ومن مغالاته أنه نبش قبر ابن الكيزانى ، وأخرج عظامه من رمسه الذى كان بجانب قبر الشافعى قائلا لا يتفق مجاورة زنديق لصديق . ولكن كرهه للفاطميين وشدة إخلاصه للأيوبيين هى التى جعلت صلاح الدين يثق به ويكرمه ويقربه ؛ برغم أنه لما مات وجدت له ألوف الدنانير ، فلما سمع ذلك صلاح الدين قال : ياخيبة المسعى ! وتوفى نجم الدين سنة ٥٨٧ .

وفى عهد صلاح الدين أيضاً درس فيها محمد بن هبة الله البرمكى الحموى ، وهو فقيه فرضى نحوى متكلم أشعرى العقيدة مرجع أهل مصر فى فتاويهم ، وله نظم تعليمى كثير : ألف أرجوزة فى العقائد لصلاح الدين وأخرى فى الفرائض أهداها إلى القاضى الفاضل .

ودرس بها كذلك سيف الدين الآمدى أذكى أهل زمانه وأكثرهم معرفة بالعلوم الحكمية والمذاهب الشرعية والمبادىء المنطقيـة .

وأفضل الدين الخونجى ممن قام بالتدريس فيها ، وهو فقيه شافعى يقول عنه ابن أبى أصيبعة : « سيد العلماء والحكماء أوحد أهل زمانه وعلامة أوانه ، قد تميز فى العلوم الحكمية : وأتقن العلوم الشرعية » ؛ وجعله الصالح أيوب قاضى قضاة مصر ؛ ولتميزه فى المعقولات كانت أكثر آثاره فيها ؛ فله مقالة فى الحدود والرسوم ، وكتاب الجمل فى علم المنطق ، وكتاب كشف الأسرار فى علم المنطق أيضاً ، وكتاب الموجز فيه كذلك . وكان الخونجى عالماً بالطب أيضاً وله فيه : شرح ما قاله ابن سينا فى النبض ، وكتاب أدوار الحميات . ولما مات سنة ٦٤٦ رثاه عز الدين الإربلى بقوله :

قضى أفضل الدنيا فلم يبق فاضل ... ومات بموت الخونجى الفضائل
فياأيها الحبر الذى جاء آخراً ... فحل لنا ما لم تحل الأوائل
ومستنبط العلم الخفى بفكرة ... بها اتضحت للسائلين المسائل
فليت المنايا عنه طاشت سهامها ... وكانت أصيبت عن سواه المقاتل
فإن غيبوه فى الثرى عن عيوننا ... فما علمه خاف ولا الذكر خامل

ومنهم قاضى القضـاة تاج الدين ابن بنت الأعز الذى ولى المناصب الجليلة ، واجتمع له منها ما لم يجتمع لغيره ، فأسند إليه نظر الدواوين والوزارة وقضاء القضاة وتدريس قبة الشافعى ، والصلاحية والصالحية ، والخطابة . وكانت له منزلة كبرى عند الظاهر بيبرس ومات فى رجب سنة ٦٦٥ .

ودرس بالصلاحية ، وتولى قضاء القضاة أيضاً ابنه عمر ، فسار على طريقة أبيه ، بل أربى عليها شدة هيبة . وسلك فى ولايته طريق الخير والصلاح ، وتحرى الحق والعدل ، وتصلب فى الأحكام . قال السبكى : « ولا يوجد أهل بيت بالديار المصرية أنجب من هذا البيت ، كانوا أهل علم ورياسة وسؤدد وجلالة » ؛ ثم عزل نفسه واقتصر على تدريس الصلاحية وتوفى سنة ٦٨٠ .

ولما مات ولى أخوه عبد الرحمن المدرسة الصالحية والتربة الصالحية عوضاً عن أخيه مضافاً لما بيده من نظر الخزائن . وفى أيام قلاوون عرضت على عبد الرحمن الوزارة فأبى ثم قبلها بعد إلحاح ، فلما ثقلت عليه تركها . وكان للكارهين للملك الأشرف خليل ، وبينه وبين وزيره ابن السلعوس تنافس وعداء ، فعمل الوزير وسعى حتى عزله عن كل ما بيده من المناصب ، وكانت سبعة عشر منصباً ، وبالغ فى إهانته ؛ ثم سعى له بعض الأمراء فعين بالمدرسة الصلاحية ، ولكن ذلك لم يرض ابن السلعوس فعقد له فى ذى القعدة سنة ٦٩١ مجلساً وندب له العلم ابن بنت العراقى الذى نسب إليه كثيراً من المظالم فاعتقل وتوعد بالقتل ، وظل فى بلاء إلى أول شهر رمضان سنة ٦٩٢ ، حيث أفرج عنه ، ومضى مع الركب إلى الحج ، وزار النبى صلوات الله عليه ، وأنشده قصيدة يمدحه بها ومات عبد الرحمن سنة ٦٩٥ .